الدلالة الإيحائية للمركبات النِّدائية في الأنساق القرآنية

(دراسة في دلالة الخطاب)

أ.م.د. أحمد عبد الله نوح

كلية التربية في القرنة – جامعة البصرة

فحوى البحث

وقف السيد الباحث عند جماليات التركيب الندائي في القرآن الكريم والمقسّم على اختيارين هما: اللطف وما يقابله تَقابُلَ تضاد وهو: القسوة في الخطاب. أي إن البحث صوتي –بلاغي يقوم بتحليل كل مقطع من مقاطع الآيات (٤١ –٤٢–٤٣ –٤٤ –٤٥ –٤٦) من سورة مريم، وبيان ما تضمنه ذلك المقطع من سمات صوتية بارزة ومميزة وما لها من أثر في إحداث نوع من الايقاع الداخلي الذي يجسّد المعنى.

وبالنظر الى طول اقائمة المصادر والمراجع فقد اقتصرنا على ذكر أهمها. فنعتذر

بسم الله الرحمن الرحيم

مهاد وتأسيس:

وقفنا عند جماليات التركيب الندائي في القرآن الكريم المُقسَم على اختيارين هما اللطف ومايقابله تقابل تضاد وهو القسوة في الخطاب وبعد طول تأمل وسعة تحليل لكل مقطع وتبيين ماتضمنه من سمات صوتية بارزة ومميزة وما لها من أثر كبير ودور بارز في إحداث نوع من الايقاع الداخلي، فقد حفل نداء الرحمة والتلطف في خطاب الولد البار -إبراهيم عليه السلام- لأبيه آزر ببناءٍ فني سلك مسلكاً خاصاً جمع بين دقة المعنى وبراعة التصوير و إيثار أصوات خاصة تضامت مع بعضها البعض، وتكرر بعضها تكراراً مقصوداً ملحوظاً ليؤديا معاً إلى خلق توازنٍ إيقاعي ذي دلالة متواسقةٍ وسياقَ الحال الذي تشوبه الرأفة والرقة واللين واللطف وغيرها من مظاهر الرحمة. فقد حاول هداية آزر هداية مصحوبة بأرق الألفاظ وأحبّها إلى النّفس بأسلوب يجمع بين الرّقّة واللطافة، هذا من جانب، ومن جانب آخر الرغبة في إيصال هذه الدّعوة وتأديتها بأعلى الأصوات وأوضحها.

فعند ملاحظة الجانب الصوتيّ المكوِّن لآيات الاختيار الأول -الرحمة واللطف-وجدنا أنّه اجتمعت فيها أوضح الأصوات وأكثرها رقّة وعذوبة وقدرة على التعبير عن محتواها الدلاليّ، وأبرز هذه الأصوات صوت السين الذي كان له دور هام وكبير في إبراز ما اتّسم به هذا الأسلوب من وضوح سمعيّ ورقّة وتلطّف في الخطاب لما اتّسم به من صفات هيّأت له هذه الدلالة فهو صوت صفيريّ احتكاكيّ مهموس مستفل مرقق الحركات ذو إيقاع منغم، ومن خصائص هذا الصوت أيضاً أنّه يوحي بإحساس لمسي بين النعومة والسلاسة، كما يوحي بالرقة والليونة والضعف بما يتناسب مع خاصية الرقة والسلاسة فيه.

ومن خلال هذه الصفات نجد أنّ هذا الصوت ناسب مقام الحديث بما أوحى به من دلالة على الحدث بما يملكه من سمة صفيريّة احتكاكيّة ومافيه من إمتداد وهب له الوضوح الى سمعيّ ليبقى صداه مدة أطول في ذهن المتلقي، وبما امتلكه من ليونة وسلاسة وصفاء ونقاء أوحت

بصفاء ونقاء دعوة إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله (عزّ وجلّ)، فضلاً عمّا تضمّنه الهمس من دلالة اللطف والرقّة بما يوائم هذا الموقف.

وآزر هذا الصوت في تحقيق هذا الغرض وهذه الدلالة صوت آخر وهو صوت (التاء)، الذي تكرر تكراراً ملحوظاً في هذا التركيب وهذا الصوت من الأصوات المهموسة» وهو صوت أسنانيّ لثويّ مهموس فيه وقفة انفجاريّة يحدث عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة، ويضغط الهواء مدة من الزّمن ثمّ ينفصل اللسان فجأة تاركاً نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجاريّ ولا تتذبذب الأوتار الصوتيّة عند النّطق به. وهكذا صنفت التّاء في زمرة الحروف اللمسيّة؛ لأنّه يوحي فعلاً بإحساس لمسي مزيج بين الطّراوة والليونة، وهكذا برزت دلالة هذا الصوت بما تضمنه من صفات اللين الهمس والطّراوة والليونة أوحت باللين والرقّة والتّلطّف في الخطاب، كما أنّ ما يحمله هذا الصوت من سمة الانفتاح النّابعة من إنفصال اللسان فجأة عن أصول الثّنايا العليا أو السّفلى جعلته يحاكي مافي نفس إبراهيم عليه السلام من انشراح نفسيّ ليبعث عن طريق هذا الانشراح الراحة والطمأنينة في نفس آزر.

وعند تتبع هذا التركيب النّدائيّ «يا ابتِ» وجدنا له ظهوراً بارزاً فقد افتتح فيه جميع نداءاته، فأورد كلامه الحسن مقروناً باللطف والرّفق فأتى بهذه اللفظة الرّقيقة استعطافاً له فهو يذكّره بصلة القرابة بينهما ويُقر له بالتبعية البنيوية، فكان غرضه من ذلك إثارة غريزة الحنان وإيقاظ أواصر الرّحم.

أما فيما يخص الموقف المقابل لخطاب الرأفة والرحمة والتلطف نجد نوعاً من الخطاب المضاد الذي توشح بالقسوة والغلظة والتهديد والوعيد، إذ يجد المتأمل لمقطع الاختيار الثاني أنّه تكوّن من أصوات اتصفت بصفات الشدة والقوة والانفجار والتكرار وغيرها، إذ ابتدأ الأب (آزر) خطابه بالنبر –الهمزة –وهو صوت انفجاري وهو صوت الهمزة وذلك بقوله: ((أراغب))، ويتكرر هذا الصّوت في تضاعيف خطابه تكراراً واضحاً، في

الألفاظ (أراغب، أنت، لئن، أرجمنّك).

فهذا الصّوت يحمل صفات الانفجار والشّدة والثّقل، كما وصفه سيبويه بقوله: ((اعلم أنّ الهمزة إنّما ثقل بها هذا من لا يخففها لأنّه بعد مخرجها، ولأنّها شدة في الصّدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً لأنّه كالتّهوع))، أمّا مخرجها فيكون من أسفل الحلق وأقصاه ويتسم هذا المخرج بانفراج الوترين الصّوتيين فجأة بعد حبس النّفس خلفهما ليحدث صوتاً مسموعاً وهو صوت الهمزة، » كما يتّسم هذا الصّوت بعمق مخرجه وقربه من جوف الصّدر لذلك فهو من أكثر الأصوات تأثيراً بما يحدث في النّفس من إنفعالات.

ومن خلال هذه الصّفات نجد أنّ هذا الصّوت يحتاج إلى جهد كبير ويتصف بالشّدة والقوة والثّقل في أثناء النّطق به، فيحاكي بذلك المواقف العنيفة والقويّة، وهذا منسجم تمام الانسجام مع ماتّسم به موقف آزر من دعوة إبراهيم عليه السلام. فلكلّ سمة من هذه السّمات دور في إبراز الدلالة، فسمة الانفجار الوقفيّة فيه التي تحدث عند انغلاق مخرجه تحكي توقف عقل هذا الكافر وتفكيره، وتحجز قلبه وتصلبه فكأنّه أغلق وأطبق على الكفر إطباقاً فلم يقبل أيّة دعوة للهداية بأيّ أسلوب كانت.

كما أنّ عمق مخرجه يوحي بتعمق الكفر في نفسه فجذور الكفر قد تأصلت في أعماق قلبه المتصلب الرافض للإيمان.

ويعاضد هذا الصّوت صوت آخر وهو صوت الجيم الذي يشترك مع الهمزة في أغلب صفاتها، فكان له دور أيضاً من خلال تكراره في زيادة حض هذا الجو من العنف والقسوة بما له من سمات عنيفة شديدة فهو يعد من الأصوات الانفجارية الاحتكاكية المجهورة، ونتيجة لقوة الحاجز ينعدم الانفتاح في هذا الصّوت تماماً فبما تملكه الجيم من هذه الصّفات التي توحي بالشدة بالقساوة والصّلابة والخشونة تناظر شدة هذا الرّجل وقساوة قلبه، كما أنها بما تمتلك من دلالة على الفعاليّة والمقاومة والتّماسك والتّدافع والإستمرار والإمتلاء تحاكي موقف آزر الذي غلب عليه الفساد والتّكبر والقسوة في الحوار والاستعلاء والإنكار لهذه الدّعوة،

والإستمرار والتّمسك بتلك العقيدة الباطلة. فبدأ خطابه بسؤال إنكاريّ ((أراغب)) فكان لتنغيم هذا الإستفهام دوره الهام في تحقيق هذا الإنكار، فأسلوب الاستفهام يحمل معنى الإنكار والتّعجب ويدلّ على اللوم والتّقريع.

فعلى الرّغم من المناصحة العجيبة مع ماتحمله من ملاطفات جاء جوابه بمنتهى الجّفاء فقابل ذلك بفضاضة الكفر وغلظة العناد لقساوة قلبه وشدّته أضف إلى ذلك أنّه لم يقابل قوله: ((يا أبت)) باللفظة التي تقاربها في التّحبب، أي: (يابني)، فدعوة إبراهيم عليه السلام لم تصل إلى قلب هذا المشرك فقابله بالاستنكار

والتهديد والوعيـــد، وتلقى دعوته بجهالة وقسوة في مقابلة هذا القول المهذّب، وهذا هو شأن الإيمان مع الكفر وشأن القلب الذي هذّبه الإيمان والقلب الذي لوثه الكفر، وهكذا نجد أنّ صوت الجيم أدى دوره وغرضه بمنتهى الدّقة، فوائم دلالة السياق بما فيهمن عنف وشدة فهذا الصّوت يحكي عند دخوله التّركيب الأحداث العنيفة والمواقف الشّديدة بما يحمله من جرس إنفجاري عنيف ونلحظ تكرار صوت آخر في النّص، ألا وهو صوت الرّاء الذي يتصف بصفة الإستمرارية فهي تتسم بخاصيّة التّكرار أي ارتفاع اللسان عند النّطق به فهي تتكرر على اللسان عند النطق بها وكأنّ طرف اللسان يرتعد بها، فكأنّك تنطق بأكثر من حرف واحد، وأظهرها ما يكون التّكرير إذا كانت الرّاء مشددة أو وقفت عليها.

وهذا الوضوح يناسب الوضوح السّمعيّ الذي دارت حوله معظم ألفاظ هذا التّركيب، فجاءت الرّاء مناسبة من جهة الاستمرار لمقام آزر ومن جهة الوضوح لما دلت عليه هذه الآيات من دعوة واضحة وخالصة.

كما نلمح أيضاً القوة والتّصلب والشّدة في قوله: ((لأرجمنّك)) فقد اجتمع في هذه اللفظة الهمزة الشّديدة الثّقيلة، والجّيم الإنفجارية الشّديدة المجهورة، والرّاء التّكراريّة الإستمرارية المجهورة، والميم المطبقة وما فيها من صفات الجّهر، فكان لهذه الشّدة والإستمراريّة والإنفجار والإطباق أثر كبير في إبراز الجانب

الدّلاليّ المعبّر عن شدة الحقد في نفس آزر ورفضه لهذه الدّعوة فحصلت المناسبة بين إطباقه على الكّفر وبين صفة الإطباق في الميم والوقفة في الجّيم قبل الإنفجار، وكذلك المناسبة بين شدّته وبين شدّة الجيم، والمناسبة بين استمراره في الكفر والإستمرار في الرّاء، ويضاف إلى ذلك دخول نون التوكيد الثّقيلة ومافيها من تشديد وما يحمل هذا التّشديد من دلالة على الكثرة والمبالغة، فمجيؤه في القرآن الكريم لتأدية هذه الدّلالة، فالعرب تزيد الصّوت لزيادة المعنى وتكثير اللفظ ومن هذه الزيادة والتّكثير تأتي الدّلالة على المبالغة وتقويتها، وكذلك في التّضعيف ثقل على اللسان لانّ النّاطق به يستلزم العودة إلى الموضع نفسه بعد مفارقته، وذلك يتطلب مجهوداً كبيراً، فهذه المبالغة وهذه الشّدة تدلّ مبالغته في الكفر والإنكار وشدة إصراره على معاقبة إبراهيم عليه السلام وتصديه لدعوته وإعراضه عنها.

فالشدة والإطباق والإستمرار صفات ساهمت مساهمة رائعة في التعبير عن هذا المعنى، يساندها في ذلك التشديد في النون الذي رسم بشدته وثقله صورة تساند المعنى الذي دلّت عليه الألفاظ التي تحمل هذه الصفات وهو شدة الموقف وتصوير بغض الرّجل (آزر) وحقده في هذا النّص القرآنيّ.

وهكذا نرى أنّ النّظم القرآنيّ يراعي في اختيار كلماته وألفاظه وعباراته معايير صوتيّة وصرفيّة وتركيبيّة. فقد صوّرت هذه الأصوات بمجموعها هذا النّصّ الحواريّ تصويراً عاماً دقيقاً، فجاءت الأصوات موزعة توزيعاً رائعاً على أجزاء السّياق، فمعظم الأصوات المكونة للنصّ من أوضح الأصوات اللغويّة في السّمع وأنقاها وأكثرها تعبيراً عن الرّقة واللطف والشّفقة والرّحمة، فالصّوامت التي شغلت هذا التركيب (السين، الصّاد، التّاء، الهمزة، الجّيم، الرّاء، الميم) كان لها أثرها الموسيقيّ بملمحها المتميز وهو الصّفير والنقاء في السّين والصّاد، والتّفخيم والإستعلاء في الصّاد، والإنفجار في التّاء والجّيم، والثّقل والشّدة في الهمزة، والتّكرار والإستمرار في الرّاء، فهذه الصّفات تآزرت جميعاً لترسم هذه اللوحة الفنية والصورة الرائعة المظللة

بظلال من الشّفقة والرّحمة والحبّ الإلهي من جانب إبراهيم(عليه السلام) وبظلال من اللؤم والبغض والكره من جانب آزر، كما أنّ الوضوح السّمعيّ في هذه الأصوات ناسب مضمون هذه الآيات الدّاعي إلى توحيد الله (عزّ وجلّ) الذي يقتضي الوضوح السّمعيّ، فتكرارها في النّص جعلها أقدر على الإيحاء بالمعنى والإسهام في إعطاء السّياق تناغماً إيقاعياً لغرض تهيئة ذهن المتلقيّ وجعله في حالة إنتباه وتركيز في محتوى الخطاب ومضمونه.

من خلال تتبع المعاني التي أوردتها المعاجم قديمها وحديثها لمفردة النداء نجدها لاتكاد تخرج معنى النداء عن ثلاث معان: الصوت والدعاء والصراخ، فدار معنى النداء حول هذه المعاني الثلاث.

وقال الزمخشري مفرقاً بين النداء والمناجاة ((وأنا أناديك ولاأناجيك، (ونودي للصلاة، إذا سمعت النداء فأجب)))[1] فبقوله أناديك ولا أناجيك دلالة على أنّ النداء يختلف عن المناجاة، وهكذا نجد أنّ النداء في اللغة مد الصوت ومن هذا المد تتحقق غاية الاقبال والتنبيه للمخاطب.

النداء اصطلاحاً:

عرفه سيبويه من حيث الوظيفة التي يؤديها في المنادى وعمله فيه أي أنّ تعريفه للنداء تعريفاً وظيفياً فقال في ذلك: ((اعلم أنّ النداء كل اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره والمفرد رفع، وهو في موضع اسم منصوب))[2] وتابعه في ذلك المبرد فقال: ((اعلم أنّك إذا دعوت مضافاً نصبته..))[3].

فالتعريفان بينا دور النداء في الجملة لفظياً، أي: من حيث العمل اللفظي في المنادى فسيبويه قال: إنّ المنادى إذا كان مضافاً ينصب بفعل محذوف وقد قدره علماء اللغة ب(أدعو أو أنادي) فعندما نقول ياعبد الله، أصله أنادي أو أدعو عبد الله. فقال السيد أحمد الهاشمي في جواهر البلاغة ((النداء هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب

(١) أساس البلاغة: الزمخشري، ٤٥١ –٤٥٢.

(٢) الكتاب: سيبويه، ٢/ ١٨٢.

(٣) المقتضب: المبرد، ٤/ ٢٠٢.

(أنادي) المنقول من الخبر إلى الإنشاء))[٤] وقوله: المفرد رفع يقصد أنه إذا كان المنادى مفرداً يرفع لكنه في محل نصب بهذا الفعل المحذوف.

وقول الهاشمي: (المنقول من الخبر إلى الإنشاء) يعتبر فيه أنّ أصل النداء خبر ثم نقل بعد ذلك إلى الإنشاء، أما ابن الشجري في أماليه فيذهب إلى أنّ ((عامة الناظرين في المعاني يزعمون أنّ لفظ النداء لمعنى واحد –لايتجاوزه إلى غيره –قال: لأنّ قولك يا زيد ويا عبد الله، صوت يدل المدعو على أنّك تريد منه أن يقبل عليك، لتخاطبه بما تريد أن تخاطبه به، وليس النداء إخباراً ولا استخباراً، ولا أمراً ولا نهياً ولاتمنياً، ولاعرضاً... والدليل على أنه صوت خال من هذه المعاني أنّ البهائم تنادى بأصوات موضوعة لها وهي لاتخبر ولا تستخبر))[٥] فظاهر قوله أنّ النداء قد أبعد عن الخبر وكذلك عن جميع أساليب الإنشاء، وليس الأمر كذلك فعندما تقول: أنادي علياً، في هذه الجملة إخبار بالمناداة وعند حذف فعل النداء (أنادي) وإنابة حرف النداء منابه أي تصبح الجملة يا علي ففي هذا طلب الإقبال من علي وفي الطلب أمر والأمر أحد أساليب الإنشاء وبهذا تتحول الجملة من الخبر إلى الإنشاء لما فيها من طلب الإقبال والتوجيه للمنادى.

وذهب ابن يعيش إلى أنّ النداء ((التصويت بالمنادى ليعطفه على المنادي))[٦] وقال ابن السراج)) أصل النداء تنبيه المدعو ليقل عليك))[٧] فيبين لنا ابن السراج أنّ الغرض من النداء تنبيه المدعو، وهذا التنبيه ناتج من امتداد الصوت في حرف النداء، فمن خلال الامتداد فيها يكون زمنها أطول في النطق.

والى هذا ذهب عباس حسن فقد حده بقوله: ((هو توجيه المدعو الى المخاطب وتنبيهه للإصغاء وسماع ما يريد المتكلم))[٨].

فالذي يؤدي الجملة الندائية عنصران

(٤) جواهر البلاغة: السيد أحمد الهاشمي: ١/ ٧١.
(٥) أمالي ابن الشجري: ٣/ ٤١٧.
(٦) شرح المفصل: ابن يعيش: ٥/ ٤٨.
(٧) الأصول في النحو: ابن السراج، ١/ ٣٢٩.
(٨) النحو الوافي: عباس حسن، ٤/ ١.

هما المدعو والداعي، أو المنادى والمنادي، أو المخاطَب والمخاطِب فهناك توجيه وإقبال كما قال الزركشي في برهانه: ((النداء هو إقبال المدعو على الداعي))[٩].

ويعرفه ابن عقيل في شرحه لألفية ابن مالك تعريفاً يتوخى هذه الدلالة قائلا: ((النداء هو طلب إقبال المخاطب بوساطة أحد أحرف النداء ملفوظاً كان حرف النداء أم ملحوظاً))[١٠] فيعني أنّ النداء فيه طلب، وهذا الطلب يحصل بوساطة أحد أحرف النداء سواء كان هذا الحرف ملفوظاً أي ظاهراً في الجملة، أو محذوفاً منها يلحظ من خلال السياق وفي هذا دلالة على جواز حذف حرف النداء وهذا ماسنبحثه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

الصوت لغة واصطلاحاً:

أولاً: الصوت لغة: الجرس والجمع أصوات، قال ابن السكيت: الصوت صوت الإنسان وغيره، والصائت الصائح، ورجل صيّت، أي: شديد الصوت[١١].

والصوت إصطلاحاً: عرفه ابن جني بأنّه ((عرض يخرج من النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها))[١٢].

علاقة النداء بالصوت:

للجملة الندائية دلالة صوتية تؤدي دوراً هاماً للتعبير عن المعنى الذي يؤدي إليه السياق، فالدلالة الصوتية ليست بعيدة عن الجملة الندائية، وتظهر لنا علاقة النداء بالصوت من خلال حد النداء لغوياً أولاً، فحده كثير من اللغويين، بأنّه تصويت أو صوت كما بينا سابقاً، وكذلك لأدوات النداء اعتبار صوتي فهي ليست إلا مدود تحمل معنى التنبيه والاستحضار، وهذه المدود تتدرج من القريب إلى البعيد ومن البعيد إلى القريب، فهناك أدوات فيها

(٩) البرهان: الزركشي، ٢/ ٣٢٣.
(١٠) شرح ابن عقيل: ٣/ ٢٥٨.
(١١) ينظر: لسان العرب: (صوت).
(١٢) ينظر: سرصناعة الإعراب: ابن جني، ١/ ٦.

امتداد أصلي في الصوت وهي (يا، أيا، ها، وا) لذلك جعلت لنداء البعيد لما تحمله من مد صوتي ووضوح سمعي.

فـ(يـا) كـما ذكـر ابـن هـشـام حرف موضوع لنداء البعيد[١٣]. وإلى هذا ذهب المالقي ((إلى أنّ حقها أن تكون للبعيد أو النائم، اللذين لا يسمعان إلا بعد مد الصوت لأنّ آخرها ألـف، فلك أن تمد الصوت ماشئت))[١٤].

وأشار الاسترآباذي إلى((أنّ المتكلم يقول في نداء البعيد وفي الندبة (يا زيداه) عامداً إلى دعم الجانب الصوتي المتحقق بألف ها ء بعد المنادى))[١٥].

فـ (يـا) هنا ساندت المد الصوتي في ألف الندبة، فهي تصلح للندبة لما بينها من توافق وتجانس، فالياء فيها مد وكذلك الندبة تتطلب المد في الصوت لتحقيق غرضها وهو التنبيه بأرفع الأصوات.

أمّـا (أيـا، هـيـا) فـقـال المالقي فيها ((ومعناها للتنبيه كلها ثلاثة أحرف آخرها ألف لتحمل المد ماشئت، لأنّ مدّ الصوت بها يمكن))[١٦] فهذان الحرفان يحملان مداً للصوت فقد ختما بحرف الألـ وهو أمد الحروف وأطولها.

ويستعملان كما تستعمل (يا)، أي: إذا كان المنادى متراخياً عن النداء أو معرضاً عنه لايقبل إلا بعد اجتهاد، أو نائماً قد استثقل في نومه[١٧].

ويتكونان من ثلاثة أحرف وفي هذه الكثرة دعـم لدلالتها على البعد فكثرة الحروف ((تدل على كثرة المسافة))[١٨].

ومنها مايستعمل لنداء البعيد لكن بعد مد الصوت فيه وهي ((أي)) ((فقيل أنّها تصلح لنداء البعيد لما فيها من مد في الصوت فقال المبرد عنها (فيها قبول مد الحركة فتصبح (أيا) فجميع هذه الحروف التي فيه تكون لمد الصوت))[١٩].

فيشترط استعمال (أي) للبعيد، مد الصوت فيها.

(١٣) ينظر: مغني اللبيب: ابن هشام، ١/ ٤١٣.
(١٤) رصف المباني المالقيّ، ٥١٣.
(١٥) شرح الكافية: الاستراباذي، ١/ ٤١٣.
(١٦) رصف المباني: ٢١٥.
(١٧) ينظر: شرح المفصل: ١٥٠.
(١٨) وقاية النحو: ١٦٩.
(١٩) المقتضب: المبرد، ٧/ ٢، أصول تحليل الخطاب محمد الشاوش، ٢/ ٦٧٦.

وذهب السامرائي إلى أنّ (أي) لايمد فيها الصوت لذلك لاتستعمل للبعيد ((لأن البعيد يحتاج إلى مد الصوت لندائه وأي ليس فيها مد الصووت بخلاف يا وأخواتها))[٢٠].

الهمزة (أ): تستعمل لنداء القريب نحو قول الشاعر:

***أزيداً أخا ورقاء إن كان ثائراً*.**

فهي لمجرد التنبيه، ولم يرد منها امتداد الصوت لقرب المدعو، ولايجوز نداء البعيد بالهمزة لعدم المد فيها، ويجوز نداء القريب بسائر حروف النداء توكيداً[٢١].

فالبعيد لاينادى بالهمزة، لأنّ الصوت فيها لايمد فلا يصل لمن يبعد في المسافة، أما ماينادى به البعيد (يا، أيا، هيا) ينادى به القريب على الرغم مماتحمله من مد صوتي، فهذا المد يؤكد الغرض من النداء ويحمله على المبالغة والإصرار في طلب لحصول على غايته منه، والإقبال عليه.

وقيل أنّ الألف المفرد تأتي على وجهين: أن تكون حرفاً ينادى به القريب كقول امرئ القيس:

***أفاطم مهلا بعد هذا التدلل*.**

وقد تمد حركتها فتصبح (آ) وإذا ذكرت فهنا قوي اعتبارها مجرد عماد صوتي[٢٢]. وهكذا نجد أنّ جميع أدوات النداء فيها امتداد صوتي (يا، هيا أيا) فجميعها ختمت بالألف، وهذا الحرف فيه مد للصوت فهو من حروف اللين المدودة، والهمزة تمد كذلك فتصبح (آ) وكذلك (أي) تصبح (أيا) فيحصل فيها المد، وهذا المد ضروري لتأدية غرض التنبيه في هذه الأحرف. ونستنتج من ذلك أن الدلالة الصوتية هي جزء من أجزاء الدلالة السياقية للجملة النداءية لاتنفصل عنها ولا تبتعد، ومن هذه الانطلاقة نرى أنّه من الضروري أنّ نمد بحثنا هذا بجانب تطبيقي نعالج فيه بعض النداءات القرآنية من الجهة لصوتية الدلالية، وسيقتصر البحث على بعض الآيات التي فيها دلالة صوتية لافتة للنظر وهذا ما سنقدمه لاحقاً في قسمه التطبيقي إن شاء الله تعالى.

(٢٠) معاني النحو: فاضل السامرائي، ٤/ ٢٧٦.
(٢١) ينظر: شرح المفصل: ١٥.
(٢٢) ينظر: أصول تحليل الخطاب: ٢/ ٦٧٦.

أولاً: دلالة الرّحمة والتلطف:

قال -تعالى -: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾[سورة مريم: ٤١-٤٦] لو استعرضنا اسلوب النداء في هذه اللوحة القرآنيّة الرّائعة لوجدنا أنّه من الممكن تقسيمه إلى مقطعين: المقطع الأول: يرسم لنا حال نبيّ اللهّ إبراهيم عليه السلام في توجيه ندائه إلى آزر دعوة منه إلى توحيد اللهّ (عزّ وجل) وعبادته، أمّا المقطع الثاني: يرسم لنا ردة فعل آزر وجوابه لإبراهيم عليه السلام وكيف كان موقفه من هذه الدعوة. ويمكننا أن نتلمس جماليات هذا التركيب النّدائي بعد تأمل كلّ مقطع وبيان ماتضمّنه من سمات صوتيّة مميّزة وما لهذه الأصوات من أثر كبير في إحداث نوع من الإيقاع الداخلي. وكذلك نتلمس هذه الجماليّات من خلال الوقوف عند هذه الآيات وبيان ماتحمله من ألفاظ وتعابير لها أثر بالغ في تحقيق الدلالة المطلوبة.

فالمتأمل في نداء نبيّ اللهّ إبراهيم عليه السلام يلحظ ما في هذا النّداء من لطائف صوتيّة ودلاليّة، فالبناء الفنيّ لهذه الآيات سلك مسلكاً خاصاً جمع بين دقة المعنى وبراعة التصوير، فقد حاول هداية آزر هداية مصحوبة بأرق الألفاظ وأحبّها إلى النّفس بأسلوب يجمع بين الرّقّة واللطافة، هذا من جانب، ومن جانب آخر الرغبة في إيصال هذه الدّعوة وتأديتها بأعلى الأصوات وأوضحها.

فعند ملاحظة الجانب الصوتيّ لهذه الآيات نجد أنّه اجتمع فيها أوضح الأصوات وأكثرها رقّة وعذوبة وقدرة في التعبير عن محتواها الدلاليّ، وأولى هذه الأصوات صوت السين الذي كان له دور هام وكبير في إبراز ما اتّسم به هذا الأسلوب من وضوح سمعيّ ورقّة وتلطّف في الخطاب لما اتّسم به من صفات

هيّأت له هذه الدلالة فهو ((صوت صفيريّ احتكاكيّ مهموس مستفل مرقق الحركات ذو إيقاع منغم))[٢٣].

ويحدث هذا الصوت عند ((ارتفاع وسط اللسان نحو الحنك الأعلى فيكون الفراغ بين طرفي اللسان وبين اللثة قليلاً جدّاً يرفع الحنك اللين ولا يتذبذب الوتران))[٢٤]. ومن خصائص هذا الصوت أيضاً ((أنّه يوحي بإحساس لمسي بين النعومة والسلاسة، كما يوحي بالرقة والليونة والضعف بما يتناسب مع خاصية الرقة والسلاسة فيه))[٢٥].

ومن خلال هذه الصفات نجد أنّ هذا الصوت ناسب مقام الحديث بما أوحى به من دلالة على الحدث بما يملكه من سمة صفيريّة احتكاكيّة ومافيه من إمتداد وهب له الوضوح اليسمعيّ ليبقى صداه مدة أطول في ذهن المتلقي، وبما امتلكه من ليونة وسلاسة وصفاء ونقاء أوحت بصفاء ونقاء دعوة إبراهيم عليه السلام إلى توحيد اللهّ (عزّوجلّ)، فضلاً عمّا تضمّنه الهمس من دلالة اللطف والرقّة بما يوائم هذا الموقف.

وآزر هذا الصوت في تحقيق هذا الغرض وهذه الدلالة صوت آخر وهو صوت (التاء)، الذي تكرر تكراراً ملحوظاً في هذا التركيب وهذا الصوت ((من الأصوات المهموسة))[٢٦]. وهو صوت أسنانيّ لثويّ مهموس فيه وقفة انفجاريّة يحدث عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة، ويضغط الهواء مدة من الزّمن ثمّ ينفصل اللسان فجأة تاركاً نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجاريّ ولا تتذبذب الأوتار الصوتيّة عند النّطق به[٢٧]. وقد وصف هذا الصوت

(٢٣) ينظر: الأصوات اللغوية: ٧٤ –٧٥، علم الأصوات العام: د. بسام بركة: ١٢٠، علم الصرف الصوتي: عبد القادر عبد جليل، ٨٧.

(٢٤) علم اللغة (مقدمة): د. محمد السعران، ١٧٥، استخدامات الحروف العربية: سليمان فياض، ٦٥.

(٢٥) خصائص الحروف العربية: عباس حسن، ٢٩٧ –٢٩٨

(٢٦) سر صناعة الإعراب: ابن جني: ١/ ١٥٩، النظام الصوتي للغة العربية: د. حامد بن أحمد: ١٨.

(٢٧) سر صناعة الإعراب: ابن جني: ١/ ١٥٩، النظام الصوتي للغة العربية: د. حامد بن

عباس عوض في كتابه خصائص الحروف العربيّة وصنّفه ضمن الحروف اللمسيّة قائلاً: ((على الرغم ممّا أسند لهذه الحرف من الشدة والانفجار وممّا وصف بالقرع بقوّة فإنّ صوته المتماسك المرن يوحي بملمس الطّراوة والليونة، كأنّ الأنامل تحسّ وسادة من قطن، أو كأنّ القدم تطأ أرضاً من الرّمل الجّاف، ونظراً للفارق الصوتيّ بين موحيات (التاء والثاء) قالوا: التراب (للجاف) والثرى (للتراب) النّديّ وهكذا صنفت التّاء في زمرة الحروف اللمسيّة؛ لأنّه يوحي فعلاً بإحساس لمسي مزيج بين الطّراوة والليونة))[٢٨].

وهكذا برزت دلالة هذا الصوت بما تضمنه من صفات اللين الهمس والطّراوة والليونة أوحت باللين والرقّة والتّلطّف في الخطاب، كما أنّ ما يحمله هذا الصوت من سمة الانفتاح النّابعة من إنفصال اللسان فجأة عن أصول الثّنايا العليا أو السّفلى جعلته يحاكي مافي نفس إبراهيم عليه السلام من انشراح نفسيّ ليبعث عن طريق هذا الانشراح الراحة والطمأنينة في نفس آزر.

يضاف إلى ذلك دلالة هذا الصوت على التأنيث فهذه الدّلالة توحي برقّة ولطف هذا الصّوت وبيّن ا لشعراوي هذا الملمح الدّقيق في قوله تعالى: «يا أبتِ» فقال: ((هو يريد أنْ يثبت أنّه وإنْ كان أباً إلا أنّ فيه حنان الأبوين: الأب والأم، فجاء بالتّاء لتشير إلى الجّانب الآخر، لذلك نجدها لاتقال إلّا في الحنانيّة المطلقة «يابتِ»))[٢٩]. وعند تتبع هذا التركيب النّدائيّ «يا ابتِ» نجد له ظهوراً بارزاً فقد افتتح فيه جميع نداءته، فأ ورد كلامه الحسن مقروناً باللطف والرّفق فأتى بهذه اللفظة الرّقيقة استعطافاً له فهو يذكّره بصلة القرابة بينهما))[٣٠] فكان غرضه من ذلك إثارة غريزة الحنان وإيقاظ أواصر الرّحم[٣١]. أما السّر المكنون في هذا التّكرار يكمن في الحرص الشّديد والرّغبة العارمة في توجيه أبيه إلى وجهة التّوحيد خير

أحمد: ١٨، الصوتيات العربية: د. منصور محمد الغامدي: ٩١.

(٢٨) علم الأصوات: ٢٤٩، علم اللغة (مقدمة): ١٤٥ –١٥٥.

(٢٩) خصائص الحروف العربية: ٢٦٦

(٣٠) تفسير الشعراوي: ٩٨ ٩٠.

(٣١) ينظر التفسير الكبير: ١١/ ٢٢٤، التحرير والتنوير: ١٦/ ١١٥

وجهة وأنفعها[٣٢]. أما الغرض من زيادة هذه التّاء أصل النّداء يا أبي فجيء بالتّاء ((التي هي عوض عن الياء للمبالغة في تحقيق الإضافة))[٣٣]، وآزر هذا الصّوت في بيان هذه الدّلالة، صوت آخر وهو صوت الصّاد فكان لهذا الصّوت تكراراً واضحاً في تضاعيف هذه الآية، فكان له أثر هام في إيراز هذه الدّلالة التي يرمي اليها هذا النّص النّدائي بما يتسم به من صفات فهو صوت ((صامت، مجهور، لثويّ، احتكاكيّ، مطبق))[٣٤] وهو من الأصوات التي لها سمة الاستعلاء ((التي تتصعد في الحنك الأعلى))[٣٥] وينتج هذا الاستعلاء نظراً لعلو الحنك عند النّطق بها فينطق الصّوت مستعلياً في الهواء[٣٦]. أمّا طريقة تكوّن هذا الصّوت فهي الطّريقة نفسها التي يتكوّن منها السّين مع فارق واحد وهو ((انّ مؤخر اللسان يرتفع عند النّطق ارتفاعاً يمرّ به من الجّدار الخلفي للحلق أثناء النطق بالصّاد، وهذا الإرتفاع لايحدث مع السّين أي أنّ السّين مرقق والصّاد مفخم، وهو من الأصوات كاملة التّفخيم))[٣٧] ووضع اللسان عند النّطق بهذا الصّوت يكون ((مقعراً منطبقاً إلى الحنك الأعلى مع تصعّد أقصى اللسان وطرفه نحو الحنك))[٣٨] ويحمل صوت الصّاد سمات ((النّقاء وصفاء الصّورة وذكاء المعنى ووضوحه))[٣٩].

فقد عبّر هذا الصّوت إثر خروجه نقيّاً صافياً عن نقاء نصح إبراهيم المنبعث من قلبه النّقيّ، وصفاء دعوته وخلوها من أي زيف ووضوح أهدافها وغاياتها فكان له أثر في غرض التّلطف في الخطاب.

وبالإضافة إلى هذا الغرض أدى هذا الصّوت غرضاً آخر وهو تحقيق الوضوح السّمعيّ وإبراز المعنى في الذّهن لتكون

(٣٢) تفسير الشعراوي: ٩٨ ٩٠.
(٣٣) ينظر الإعجاز اللغوي في القصة لقرآنية: محمد السيد حسن مصطفى، ١٠٣ –١٠٥.
(٣٤) مجمع البيان: ١٦/ ٤١٨.
(٣٥) سر صناعة الإعراب: ١/ ٢٠٨.
(٣٦) ينظر: الخصائص: ابن جني: ١/ ٨٣، دراسات في علم اللغة الوصفي: أ. د صلاح حسنين: ١٤٢.
(٣٧) همع الهوامع: ٦/ ٢٦٧.
(٣٨) ينظر علم اللغة (مقدمة): ١٧٥، دراسة في علم الأصوات: د. علي حازم كمال الدين: ٢٩، ٤١.
(٣٩) الأصوات اللغوية: ٦٨.

الصّورة متجليّة واضحة أشد الوضوح في ذهن المتلقي ولتصل اليه بأوضح لفظ فكان له أثر في أداء مهمة الاعلان الصّريح بما يحمله من صفات الصّفير والاستعلاء والفخامة.

ويضيف د. تمام حسان صفة أخرى لهذا الصّوت وهي المبالغة في الحدث وهذه الصّفة ناتجة عن سمة التّفخيم فيقول: ((الصّاد بملمحها التّميزيّ فيها إيحاء بالمبالغة في وقوع الحدث أو في الوصف ألا وهو التّفخيم))[٤٠] فهذه السّمة جعلته أكثر مبالغة في الدّ عوة فهو حريص كل الحرص على إيصالها.

وهيأت له سمة الإطباق التي اتّسم بها هذا الصّوت الإصرار على إيصال هذه الدّعوة.

فقد جعلت هذه الصّفات له وقعاً مميزاً في هذا الإعلان مسانداً في ذلك صوت السّين بما لها من صفة صفيريّة واضحة في السّمع، والتّاء بما تحمله من صفات الجّهر والإنفجار فتكرار هذه الأصوات يجلب إنتباه السّامع ويشدّ ذهنه وتفكيره نحو المتكلم، وهذا ما يناسب دعوة إبراهيم ورغبته في جلب إنتباه آزر وإنصاته إلى مايدعوإليه وهو توحيد الله وعبادته فهذا المحور الأساس الذي تمركز حوله هذا الحوار بين إبراهيم عليه السلام وآزر.

الفواصل في القرآن الكريم ((آخر كلمة في الآية كالقافيّة في الشّعر وقرينة السّجع في النّثر، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسي الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطّريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أنّ آخر الآية فصل بينها وبين مابعدها، وقد تكون التّسمية اقتباساً من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [سورة فصلت: ١] ولا يجوز تسميتها قوافي لأن الله لمّا سلب عن القرآن اسم الشّعر وجب سلب القاقيّة عنه لأنها منه، وخاصة في الاصطلاح))[٤١].

فالقرآن الكريم ((يعطي الفواصل أهمية كبرى فهي التي يتوقف عليها أثناء

(٤٠) خصائص الحروف العربية: ٣٢١.

(٤١) البيان في روائع القرآن: د. تمام حسان: ٢٩٣.

التّلاوة، وبها تنتهي الآيات، ولها أهميّتها الدّلاليّة والصّوتيّة))[٤٢].

وبعد بيان مفهوم الفاصلة ودورها في القرآن الكريم يشكل عام نعود لنحدد معالمها في نهاية كلّ آية من هذا التّركيب فنرى أنّها فواصل مماثلة تماما فجميعها تنتهي بصوت الألف ذو الإرتفاع والعلو والإمتداد فهو ((حرف هاوٍ ينفتح فيه تجويف الفم))[٤٣] ووصفها ابن جني بقوله: ((والحروف إذ اتّسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثمّ الياء ثمّ الواو وأوسعها وألينها الألف))[٤٤] ويطلق عليها كذلك أصوات اللين وذلك نظراً لاتّساع مخارجها ف ((في هذه الأصوات يكون مخرج الهواء أكثر اتّساعاً مع غيرها من بقيّة الأصوات))[٤٥].

((وهي بطبيعتها أطول الأصوات السّاكنة))[٤٦].

ويطلق عليها كذلك أصوات المد التي تتسم بقوة سمعيّة عالية، والقوة السمعيّة لهذه الأصوات تنشأ من عدم احتكاكها فقد جعلت لها هذه الصفة بأن تكون طاقتها أعلى بكثير من طاقة الصّوامت التي يؤدي الاحتكاك عند النّطق بها إلى فقدان الكثير من طاقتها، أما أصوات المدّ فلا تفقد طاقتها وساعدتها قوة الطّاقة هذه على أن تكون أصواتها تمتلك قوة إسماع عالية جداً تفوق قوة إسماع الصّوامت[٤٧].

فكان لهذه الفواصل أثر كبير في الوضوح السّمعيّ الذي لعب دور هام في تأدية المعنى الذي بنيت على أساسه هذه الآيات فهي دعوة للتوحيد وينبغي أن تكون بأوضح الأصوات فاختار القرآن الكريم أوضح الأصوات وأمدّها وأكثرها اتّساعاً لتكون فاصلة لهذه الآيات، ((فالقرآن الكريم يختار الفاصلة بدقة عجيبة تدلّ على إعجاز بياني فهي من جهة الدّلالة تتوافق مع مضمون الآية ومن جهة الصّوت تتوافق مع الإيقاع العام للآيات

(٤٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ١/ ٥٣-٥٤. ، الإتقان: ٣/ ٢٩٣.
(٤٣) فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية: السيد خضير، ٢٠١.
(٤٤) الصوتيات العربية: ٩٢.
(٤٥) سر صناعة الإعراب: ١/ ٩-٨.
(٤٦) الكتاب: ٤/ ٣٣٥.
(٤٧) الأصوات اللغوية: ٨٠.

السابقة واللاحقة..))[٤٨].

ومن الدّقة في استخدام الفواصل أيضاً، اختيار صوت الياء ليكون حرف الردف فجاء هذا الصّوت في جميع الفواصل ماعدا (شيئاً) وهو صوت ((لين يتّسم باتّساع المخرج))[٤٩] وفي الخصائص وصف ابن جني هذه الأصوات وبيّن ماتتسم به من سمات، بقوله: ((الألف أمدّهنّ صوتاً، وأنداهنّ، وأشدهنّ إبعاداً، وأنهاهنّ))[٥٠].

وهكذا نجد أنّ الألف أوسع الأصوات وأكثرها مداً فكان نصيبها الفاصلة من هذه الآيات أمّا الياء التي أقل منها اتّساعاً ومدّاً فكان نصيبها الردف فحققت هذه الأصوات التي شكلت المقاطع الطّويلة المفتوحة دورها في هذا الخطاب فأرفدته بحظ أوفر من الوضوح الدّلاليّ وقوة الإسماع، فهي ((تتّسم بالوضوح السمعي العالي وعدم وجود إيعاقة في النطق وغيابها أثناء مرور الهواء، ويستغرق نطقها زمناً أطول من غيرها فجاءت المقاطع معززة للبنية الدّلالية ومعمقة أثرها في ذهن السّامع وتنهض بدور كبير في وضوح المعنى))[٥١].

وكما أنّ لهذه المقاطع المفتوحة والفواصل المتّسعة المخرج تأثير في قوة الإسماع ووضوح المعنى كان لها أثر كذلك في زيادة حظ هذا الخطاب من اللطافة والرّقة ومما عزز ذلك مجيء الياء المشددة قبل فاصلة الألف فتأتي هذه الياء لتشيع في هذه الفاصلة جواً من النّغم اللفظي المحبب إلى النّفس وينشأ هذا النّغم من النّطق بالياء المشددة والألف الممدودة بعدها[٥٢] وقد صوّر سيد قطب الإحساس الذي تشعر به هذه الفواصل قائلاً: ((كذلك نحس أنّ للصّورة إيقاعاً موسيقيّاً خاصاً، وحتّى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وعمق))[٥٣].

(٤٨) ينظر: في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية: غالب فاضل المطلبي، ٢٤، ٤٥.

(٤٩) فواصل الآيات القرآنية: السيد خضير، ١٤٥.

(٥٠) الصوتيات العربية: ٩٢.

(٥١) الخصائص ٣/ ١٤٣.

(٥٢) لغة القرآن في جزء عم: د. محمد أحمد نحلة، ١٧١.

(٥٣) ينظر: فواصل الآيات القرآنية: ١٦١.

وبهذا تتحقق المناسبة بين المعاني وهذا الإيقاع الصّوتي الـذي يبعث في النفس الطمأنينة والإرتياح رخياً ليناً، مناسباً لمقام النّصح والإرشـاد الممزوج بالرّفق واللين واللطف، فوصل النّداء إلى أبعد درجة وأقصاها من الوضوح السمعي مما يبعث النّفس على إطالة التّفكير والتّدقيق واستقبال النّصح والموعظة بإذن واعية وقلب متدبر، فجو الهـداية يحتاج إلى إطالة في الكلام، مع إضافة لمسات الحنان والرّأفة والرّحمة ليكون المتلقي أكثر قبولاً واستجابة للنصح، فلا بدّ من إتّباع هذا الاسـلوب لتقديم النّصح والسّعي في الهـداية، ونجد هـذه المعـالم في اسلوب إبراهيم﵇ بما أوحى به من عطف ورحمة وخوف وحرص على إيصال جميع ذلك باسلوب لطيف يشعر بالهدوء والطّمأنينة والإرتـيـاح. وإلى جانب هـذا الإيقاع الجّميل الرائع الـذي اتّسم بمدّ صوته ودويّ نبراته، نلحظ الفاظاً كان لها دور هـام في هـذا التّعبير الدّقيق، وفي رسم هذه اللوحة بضلال من الرأفة والشّفقة. ومن ذلك ما نلحظه في تكرار نداء ((يا أبت))، فعاضد هذا النّداء المتكرر التكرار الصوتي في هذه الآيات، فقد أفتتحت به نداءات ابراهيم جميعها ف((فتكرر أربع مـرات تكرير اقتضاه مقام استزاله إلى قبول الموعظة لأنها مقام إطناب مع أن الحضرة مغنية عن النّداء، فكانت الغاية زيـادة النّصح والارشـاد وإحضار ذهن السّامع وسمعه، ونجد في ذلك تشابه بينه وبين نداء لقمان لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ... يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ .. ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[سورة لقمان: ١٣ – ١٧] فقد تكرر النّداء ثلاث مرات؛ لأنّ كلاً من النّدائين الغرض منهما إيصال النّصح والارشـاد، وكـان لهما متّسع من الوقت لتقديم هذه النّصيحة والمجادلة في ذلك بخلاف نداء نوح﵇ لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾[سورة هود: ٤٢] فظهر النّداء مرة واحدة لأن ضيق المقام يقتضي ذلك))[٥٤].

من هذا يظهر لنا أنّ هذا النّداء إخباراً بالنصح والارشاد قائم على الرّأفة والشّفقة

(٥٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٠٠.

والرّحمة. ونلحظ رقة هذا الاسلوب كذلك في قوله: ((ياأبت قد جاءني من العلم مالم يأتك، فجاء استعماله يحمل دقة التّعبير، فلم يقل ياأبت أنا عالم، وأنت جاهل، أو ليس عندك من العلم شيء وإنّما أتى بصيغة تقتضي أنّ عندي علم وعندك علم، وأنّ الذي وصل إليّ لم يصل إليك ولم يأتك فينبغي أن تتبع الحجة وتنقاد إليها))[٥٥] ((فهو لم يسم أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل أبرز نفسه في سورة رفيق له يكون أعرف بأحوال ماسلكه من الطّريق فاستماله برفق حيث قال: (فاتبعني أهدك سراطاً سويا)))[٥٦].

وعند تأملنا هذه الآية المباركة نجد أنّه عبر بالفعل (جاءني) والفعل (يأتك)، فأسند فعل المجيء اليه، والإتيان لآزر، ولو تتبعنا الفرق بين هذين الفعلين لوجدنا فرقاً دقيقاً بينهما، فالأصفهاني يفرق بينهما بقوله: ((إنّ المجيء كالإتيان لكن المجيء أعم، والإتيان مجيء بسهولة، وقد يقال الإتيان بإعتبار القصد وإن لم يكن فيه الحصول، والمجيء: يقال إعتباراً بالحصول))[٥٧].

فعلم إبراهيم عليه السلام حاصل وهو علم من قبل الله (سبحانه وتعالى) يوحي به إليه، فهو صديقاً نبيّاً، أمّا علم آزر علم غير حاصل فهو لم يصدّق بعد هذه الدعوة ليحصل على العلم، فعبر ب(جاء) لما حصل، وب(أتى) لما لم يحصل بعد.

أما قوله: ((يمسك عذاب من الرّحمن))، نلمح فيه دلالات لطيفة عدة، وأولى هذه الدّلالات استعمال الفعل يمسك والمسّ في اللغة كما قال ابن فارس: ((الميم والسّين أصل واحد يدلّ على جسّ الشيء باليد))[٥٨].

وفي المفردات أشار الأصفهاني الى معناه في القرآن الكريم بتعميم المسّ على كلّ أذى يصيب الإنسان بقوله: ((المسّ

(٥٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ١٤١، التفسير الكبير: ١١/ ٢٢٤، بلاغة الإطناب في القرآن الكريم: ٨٧.

(٥٦) ينظر: روح المعاني: ١٦/ ٩٧، تفسير الكريم الرحمن: عبد الرحمن ناصر السعدي: ٤٩٤.

(٥٧) روح المعاني: ١٦/ ٩٧، الكشاف: ٣/ ١٩.

(٥٨) ظاهرة الترادف في التفسير البياني للقرآن الكريم: محمد الزوبعي، ١٠٣ – ١٠٤.

يقال لكل ما ينال الإنسان من أذى، فكثر في القرآن الكريم التّعبير بالمسّ عمّا يلحق الإنسان من أذى سواء أكان بمرض أم عقاب أم غير ذلـك))[٥٩]، فعبرت هذه اللفظة برقة أصـواتهـا عن هـذا الموقف الـذي بنيّ على أسـاس اللطف والشّفقة والرّحمة فجاءت لفظة ((مـسّ في القرآن بأزيزها الحالم، وصوتها المهموس، ونغمها الرّقيق نتيجة لتضعيف حـرف الصّفير أو التقاء حرفين متجاورين، فهذه المادة تحمل رقة صوتيّة وشدة دلاليّة تجمع بين جـرس الصّوت الهـادئ وبـين وقـع الألم الشّديد))[٦٠]، وهذا ناسب خوف ابراهيم وقلقه على آزر لما تحمله من معنى العذاب الخفيف فإبراهيم(عليه السلام) ((كان قلقاً ومتأثراً من وصول أدنى أذى إلى آزر))[٦١] فوائم هذا اللفظ الرّحمة التي عمت أجواء النصّ، يضاف إلى ذلـك تنكير لفظ (عـذاب) ومجيء من للإبتداء ليناسب بذلك المسّ الذي يعني العذاب الخفيف والمقصود أيّ شيء من العذاب فحدثت مناسبة بين الرقة والرحمة والتنكير جو السورة[٦٢]، وهذا كله ناسب جو التّلطف في الخطاب، فآثر استعمال لفظ (مسّ) على (أصاب) الذي يحمل معنى أكبر وأشدّ من العذاب فقال: ((يمسك ولم يقل يصبك فهو لايريد أن يصدمه بهذه الحقيقة، والمسّ هو الإلتصاق الخفيف))[٦٣].

كما أنّ لإظهار اسم الشّيطان في مقام الإضمار في قوله)) إنّ الشّيطان كان للرحمن عصيّا)) إذ لم يقل: (أنّه كان للرحمن عصيّا) كما أضمره في كثير من الآيات كما في قوله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[سورة البقرة: ٢٠٨] وقـولـه: ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾[سـورة الأنعام: ١٤٢] ففي الآيتين عرض عن ذكر الشّيطان، وعـبّر عنه بالضّمير (الهـاء)، أمّـا في هذه

(٥٩) مقاييس اللغة: ابن فارس، ٥/ ٢٧١.
(٦٠) المفردات في غريب القرآن: ٧٦٤.
(٦١) الصوت اللغوي في القرآن: د. محمد حسن الصغير: ١٨٣.
(٦٢) الأمثل: ٩/ ٣٢٨.
(٦٣) ينظر: اللمسات البيانية لسور القرآن الكريم: ١٢.

الآيـة فقد ذكـر اسـم الشّيطان وذلـك لإيضاح اسناد الخبر إلى المسند إليه ولزيادة التّنفير منه ولتكون الجملة موعظة قائمة بذاتها[٦٤].

فنلحظ هذا التّعبير الدّقيـــق حتّى في موقف الإظهار والإضمار فالمقـــام هنا يستوجب الإضهار ليجلب الأنتبـاه وإصغاء الذهن عند المتلقي إلى مايقـــدم له ويزيد نفرته من الشّيطان ليبتعد عن طريقه.

وهناك ملمح دلاليّ آخر وهـو ذكر الرّحمة مع العذاب فقد قـال: ((عـذاب من الرّحمن)) ولم يقل عذاب من الجبار أو القويّ أو القاهر أو المتكبر أو المنتقم أو غيرها من صفات الله التي تدلّ على عظمته وقـهره وسلطانه وقـوتـه. فجاء إظهار الرّحمن هنا ((للإشعار بأنّ وصف الرّحمانيّة لايدفع حلول العذاب... وللدلالة على أنّه ليس على وجه الإنتقام بل ذلك أيضاً رحمة من الله تعالى على عباده وتنبيهاً على ماسبق من الرّحمة والغضب وأنّ الرّحمة لاتنافي العذاب، ووجب أن تكون ولاية الشّيطان أسـوء حـالاً من العذاب نفسه وأعظم، ووجـب أن تكون ولايـة الشّيطان التي هي مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم[٦٥]، فجاء تعبير إبراهيم عليه السلام في غاية الرّوعة والجـمال والدّقة ((فهو من جانب يخاطب (ياأبت) وهـذا يدلّ على الأدب والإحـترام، ومن جانب آخر قوله: (يمسّك) توحي بالأذى الخفيف، ومن جهة ثالثة (عذاب من الرّحمن) إشارة إلى أنّ أمـرك نتيجة هذا الـشّرك وعبادة الأصنام قد بلغ حدّاً بحيث أنّ الله الذي عمت رحمته الأرجـاء سيغضب عليك ويعاقبك..))[٦٦] فهذا كلّه ناسب جو هذا الخطاب لما فيه من الرّحمة وكذلك ناسب جو السورة بعمومها، فقد تكرر (الرّحمن) في هذه السّورة ست عشرة مرة وهي أكثر سور القرآن الكريم تردد فيها هذا الاسم، فجو السّورة كان ظلّ الرّحمة والرّضى من أوله إلى آخره، فبدأت بذكر الرّحمة في قصّة زكريّا عليه السلام ((ذكر رحمة ربك عبده زكريّا))

(٦٤) الشعراوي: ٩١٠٠.

(٦٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ١١٧.

(٦٦) التفسير الكبير: ١٢/ ٢٢٨. روح المعاني: ١٦/ ٩٨.

وكذلك قول مريم عليها السلام ((إنّي أعوذ بالرّحمن منك إنْ كنت تقيّا)) فتكررت الرّحمة ومعناها وظلها في ثنايا السّورة[٦٧].

ثمّ بعد ذلك إبراهيم قال لآزر ((عذاب من الرّحمن)) ((فتحسّ لمسات الرّحمة النّديّة ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال، كما تحس انتفاضات الكون وارتجاجه فإنّه لوقع كلمة الشّرك لاتطيقها فطرته))[٦٨].

ولو تتبعنا مادة هذه اللفظة صوتيّاً لوجدناها توحي بمعناها ودلالتها، ((فالرّاء والحاء والميم أصل واحد يدلّ على الرّقة والعطف والرّأفة، ويقال من ذلك رحمه يرحمه إذا رقّ له وتعطّف عليه))[٦٩].

فصوت الحاء الذي ((يخرج من وسط الحلق ويتّسم بالإتّساع والعفويّة والنّسجيّة كي يدخل من القلب إلى القلب إذ يعدّ من أعذب الأصوات وأرقّها))[٧٠] فوائم هذا الصّوت هذه الدّعوة، فالحاء بسعة مخرجها الذي ينطلق من الحلق، فتكون قريبة من جوف الصّدر فكأنّها مخرجها منه والصّدر يحوي القلب، فبهذا تكون الدّعوة نابعة من أعماق إبراهيم عليه السلام لتصل مباشرة إلى المدعوّ فيفتح لها شغاف القلب لتستقرّ وتأخذ مكانها فما يخرج من القلب يدخل إلى القلب.

أمّا إذا تساءلنا لماذا أتى بصيغة الرّحمن ولم يقل الرّحيم مع أنّ الصيغتين من أصل واحد (رحم) وتدلان على العطف والرّفق؟. وعند العودة إلى دلالة هاتين الصّيغتين يتبين لنا الفرق بينهما في الاستعمال. فالصيغة الصرفية لهما ((الرّحمن فعلان صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة، والرّحيم فعيل صفة مشبهة تدلّ على الثبات والبقاء))[٧١]، وذهب العسكري إلى أنّ ((الرّحمن أبلغ من الرّحيم، والرّحيم مبالغة لعدوله، والرّحمن أشدّ مبالغة كلما كان أشدّ عدولاً))[٧٢]، وقال الطباطبائي في الميزان في تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

(٦٧) نظر: الأمثل: ٩/ ٣٢٨.
(٦٨) ينظر: نظم الدرر: البقائي، ١٢/ ١٥٦. أسئلة بيانية: السامرائي، ٤٧، ١٢٠.
(٦٩) في ظلال القرآن: ١٦/ ٢٣٠٠.
(٧٠) مقاييس اللغة: ٢/ ٤٩٨ (رحم).
(٧١) الكتاب: ٤/ ٤٣٣.
(٧٢) ينظر مجيب الندى: جمال الدين الفكاهي: ٥٨٦، ٥٨٩.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة] ((والرّحمن يدلّ على الرّحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر وهو الرّحمة العامة فالرّحمن للمؤمن والكافر والرّحيم خاص للمؤمن))(٧٣).

ومن خلال هذا التّفريق نلحظ الدقة في الاستعمال، فلم يقل رحيم لأنّ هذه الصّيغة تدلّ على الثّبوت والرّحمة لآزر ليست ثابتة فهو لم يؤمن بالله فتتحوّل الرّحمة إلى عذاب عند لقاءه ربّه بهذا القلب القاسي وهذه الجهالة المفرطة، وتثبت هذه الصّيغة لعند إقترانها بالمؤمن فالرّحمة له ثابتة لاتتغير في الدّنيا والآخرة، أمّا من جهة المبالغة في هذه الصّفة فهي لاتحمل من المبالغة ماتحمله صيغة (رحمن)، فجاء بلفظ (رحمن) إغراء لآزر بكثرة الرّحمة وغزارتها التي تحمل عليه عند اتباعه دين التوحيد فينعم بهذه الرّحمة.

فنلحظ أنّ إبراهيم عليه السلام استعمل أساليب متعددة لإيصال هذه الدّعوة ويدخلها إلى قلب آزر الكافر الجاحد.

ثانياً: دلالة القسوة والعنف:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٦].

بعد عرض المقطع الأول من هذا الحوار القائم أساساً على النّداء، وهو نداء إبراهيم لآزر، وبعد أن بينت ماتّسم به من سمات حسنة وجماليات في الخطاب تدلّ على الخلق الرّفيع والتّأدب الكبير الذي يحمل الرّفق والرّحمة في مخاطبة إبراهيم لآزر، نأتي هنا في المقطع الثّاني من هذا الحوار لنتعرف على الأسلوب والطّريقة التي قابل بها آزر إبراهيم عليه السلام وواجهه بها.

أكان أسلوباً مماثلاً لأسلوب إبراهيم عليه السلام أم كان أسلوباً مضاداً معارضاً له؟.

وعند تأملنا بقوله: ((أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليّاً)) نجد أنّ هذا القول يحفل بما هو معارضاً تمام المعارضة لأسلوب إبراهيم وطريقته في الحوار.

فنلحظ في الجانب الصّوتي أنّه استعمل أصوات لها دلالة الشّدة والقوة والعنف فقد ابتدأ كلامه بصوت إنفجاري وهو

(٧٣) الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري: ٣٣٧.

صوت الهمزة وذلك بقوله: ((أراغب))، ويتكرر هذا الصّوت في تضاعيف خطابه تكراراً واضحاً، في الألفاظ (أراغب، أنت، لئن، أرجمنّك).

فهذا الصّوت يحمل صفات الإنفجار والشّدة والثّقل، كما وصفه سيبويه بقوله: ((اعلم إنّ الهمزة إنّما ثقل بها هذا من لا يخففها لأنّه بعد مخرجها، ولأنّها شدة في الصّدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً لأنّه كالتّهوع))[٧٤].

أمّا مخرجها فيكون من ((أسفل الحلق وأقصاه))[٧٥] ويتسم هذا المخرج بانفراج الوترين الصّوتيين فجأة بعد حبس النّفس خلفهما ليحدث صوتاً مسموعاً وهو صوت الهمزة[٧٦]، كما يتّسم هذا الصّوت بعمق مخرجه وقربه من جوف الصّدر لذلك فهو من أكثر الأصوات تأثيراً بما يحدث في النّفس من إنفعالات[٧٧]. وسميّ كذلك بالصّوت المهتوت لما يحدث في أثناء النّطق به من إعتصار كالتّهوع[٧٨].

ومن خلال هذه الصّفات نجد أنّ هذا الصّوت يحتاج إلى جهد كبير ويتصف بالشّدة والقوة والثّقل في أثناء النّطق به، فيحاكي بذلك المواقف العنيفة والقويّة، وهذا منسجم تمام الإنسجام مع ماتّسم به موقف آزر من دعوة إبراهيم(عليه السلام).

فلكلّ سمة من هذه السّمات دور في إبراز الدلالة، فسمة الإنفجار الوقفيّة فيه التي تحدث عند إنغلاق مخرجه تحكي توقف عقل هذا الكافر وتفكيره، وتحجز قلبه وتصلبه فكأنّه أغلق وأطبق على الكفر إطباقاً فلم يقبل أيّة دعوة للهداية بأيّ اسلوب كانت.

كما أنّ عمق مخرجه يوحي بتعمق الكفر في نفسه فجذور الكفر قد تأصلت في أعماق قلبه المتصلب الرافض للإيمان.

ويعاضد هذا الصّوت صوت آخر وهو صوت الجيم الذي يشترك مع الهمزة في أغلب صفاتها، فكان له دور أيضاً من خلال تكراره في زيادة حظ هذا الجو من

(٧٤) الميزان: ١/ ١٦.
(٧٥) الكتاب: ٣/ ٥٤٨.
(٧٦) النظام الصوتي للغة العربية: د. حامد بن أحمد: ٩.
(٧٧) الكتاب: ٤/ ٤٣٤.
(٧٨) اللسانيات الحديثة: د. لقاء عبد الجليل: ٢١٨.

العنف والقسوة بما له من سمات عنيفة شديدة فهو يعد من الأصوات الإنفجاريّة الإحتكاكية المجهورة[٧٩].

ويحدث هذا الصّوت عن طريق ((اتّصال مقدم اللسان بمنطقة الغار اتّصالاً محكماً يعطيه وقفة قصيرة يليها تسريح بطيء للهواء، مما ينتج صوت يجمع بين الانفجار والإحتكاك))[٨٠].

ونتيجة لقوة الحاجز ((ينعدم الإنفتاح في هذا الصّوت تماماً))[٨١] فبما تملكه الجيم من هذه الصّفات التي توحي بالشدة بالقساوة والصّلابة والخشونة تناظر شدة هذا الرّجل وقساوة قلبه، كما أنها بما تمتلك من دلالة على ((الفعاليّة والمقاومة والتّماسك والتّدافع والإستمرار والإمتلاء))[٨٢] تحاكي موقف آزر الذي غلب عليه الفساد والتّكبر والقسوة في الحوار والاستعلاء والإنكار لهذه الدّعوة، والإستمرار والتّمسك بتلك العقيدة الباطلة. فبدأ خطابه بسؤال إنكاريّ ((أراغب)) فكان لتنغيم هذا الإستفهام دوره الهام في تحقيق هذا الإنكار، ((فاسلوب الإستفهام يحمل معنى الإنكار والتّعجب ويدلّ على اللوم والتّقريع))[٨٣].

كما كان لتقديم لفظة (راغب) دلالة على زيادة هذا الإنكار فقدم قوله (راغب) على الضّمير (أنت)؛ وذلك لزيادة الإنكار فلو قال: (أأنت راغب عنها) ما أفادت الإنكار على إبراهيم فهو أهم عنده وأعنى[٨٤].

فعلى الرّغم من المناصحة العجيبة مع ماتحمله من ملاطفات جاء جوابه بمنتهى الجّفاء فقابل ذلك بفضاضة الكفر وغلظة العناد لقساوة قلبه وشدّته أضف إلى ذلك أنّه لم يقابل قوله: ((يا أبت))باللفظة التي تقاربها في التّحبب، أي: (يابني)[٨٥]، فدعوة إبراهيم عليه السلام لم تصل إلى قلب هذا المشرك فقابله بالإستنكار والتهديد

(٧٩) همع الهوامع: ٦/ ٢٩٨.
(٨٠) استخدامات الحروف العربية: ٤٠.
(٨١) دراسة في علم الأصوات: ٣١.
(٨٢) التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: د. طيب البعوش، ٤٠.
(٨٣) خصائص الحروف العربية: ٢٩٤ – ٢٩٥.
(٨٤) الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية: ١٠٥.
(٨٥) ينظر البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٢٠.

والوعيد، وتلقى دعوته بجهالة وقسوة في مقابلة هذا القول المهذّب، وهذا هو شأن الإيمان مع الكفر وشأن القلب الذي هذّبه الإيمان والقلب الذي لوثه الكفر[٨٦].

كما أنّ نداءه له ((ياإبراهيم)) كان زيادة في التّعجب فالقسم كان قسماً جاحداً هدد فيه بالبطش والهجر إن لم يعد إبراهيم إلى دين آبائه وأجداده[٨٧]. وهكذا نجد أنّ صوت الجيم أدى دوره وغرضه بمنتهى الدّقة، فوائم دلالة السياق بما فيها من عنف وشدة فهذا الصّوت يحكيي عند دخوله التّركيب الأحداث العنيفة والمواقف الشّديدة بما يحمله من جرس إنفجاري عنيف ونلحظ تكرار صوت آخر في النّص، ألا وهو صوت الرّاء الذي يتصف بصفة الإستمرارية فهي تتسم ((بخاصيّة التّكرار أي إرتفاع اللسان عند النّطق به))[٨٨] فهي ((تتكرر على اللسان عند النطق بها كأنّ طرف اللسان يرتعد بها، فكأنّك تنطق بأكثر من حرف واحد، وأظهرها ما يكون التّكرير إذا كانت الرّاء مشددة أو وقفت عليها))[٨٩].

ووصف ابن جني هذه الخاصيّة بقوله: ((إنّك إذا وقفت عليه رأيت يتعثر بما فيه من التكرير ولذلك احتسبت في الإمالة بحرفين))[٩٠] فجاء صوت الرّاء ليصوّر بجرسه وإيقاعه المعبر ليحاكي استمرار الكافر ودوامه في عرضه عن عبادة الله تعالى، واستمرار إطباق الشّرك وطغيانه على قلبه فلا أمل يرجى من هدايته، فهو مستمر في الإغراق وراء أهواء الشّرك والظلال. كما ينتج عن طريق التّكرار في صوت الرّاء زيادة في قوة الإسماع فيها، ف((تتابع طرقاتها على اللثة تتابعاً سريعاً كأنّه أجراس الإنذار التي تدق الأسماع وتزلزل القلوب))[٩١]، فهذه الحركات المتتابعة السّريعة لأسلة اللسان تزيد هذا الصّوت قوة ووضوح سمعيّ لما فيها من تكرار، فقد قال سيبويه عنها: ((والرّاء

(٨٦) ينظر: الكشاف: ٣/ ١٩. ينظر: في ظلال القرآن: ١٦/ ٢٣١٢.
(٨٧) ينظر: الكشاف ٣/ ١٩، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية: ١٠٥.
(٨٨) الصوتيات العربية: ٩٢.
(٨٩) همع الهوامع: ٦/ ٢٩٨.
(٩٠) سر صناعة الإعراب: ١/ ٨٥.
(٩١) أساليب التعبير الأدبي: إبراهيم الساعفين: ٣٣.

إذا تكلّمت بها خرجت مضاعفة والوقف يزيدها إيضاحاً، وهكذا يعيّن كأنّها في النّطق أكثر من صوت وهذا يكسبها وضوحاً في السّمع وقوة وتفخيماً أيضاً لهذا كان الراء أقوى الصّوامت بعد أشباه الحركات إسماعاً على الإطلاق))[٩٢].

وها الوضوح يناسب الوضوح السّمعيّ الذي دارت حوله معظم ألفاظ هذا التّركيب، فجاءت الرّء مناسبة من جهة الإستمرار لمقام آزر ومن جهة الوضوح لما دلت عليه هذه الآيات من دعوة واضحة وخالصة.

كما نلمح أيضاً القوة والتّصلب والشّدة في قوله: ((لأرجمنّك)) فقد اجتمع في هذه اللفظة الهمزة الشّديدة الثّقيلة، والجّيم الإنفجارية الشّديدة المجهورة، والرّاء التّكراريّة الإستمرارية المجهورة، والميم المطبقة وما فيها من صفات الجّهر، فكان لهذه الشّدة والإستمراريّة والإنفجار والإطباق أثر كبير في إبراز الجانب الدّلاليّ المعبّر عن شدة الحقد في نفس آزر ورفضه لهذه الدّعوة فحصلت المناسبة بين إطباقه على الكّفر وبين صفة الإطباق في الميم والوقفة في الجّيم قبل الإنفجار، وكذلك المناسبة بين شدّته وبين شدّة الجيم، والمناسبة بين استمراره في الكفر والإستمرار في الرّاء، ويضاف إلى ذلك دخول نون التوكيد الثّقيلة ومافيها من تشديد وما يحمل هذا التّشديد من دلالة على الكثرة والمبالغة، فمجيؤه في القرآن الكريم لتأدية هذه الدّلالة، فالعرب تزيد الصّوت لزيادة المعنى وتكثير اللفظ ومن هذه الزيادة والتّكثير تأتي الدّلالة على المبالغة وتقويتها، وكذلك في التّضعيف ثقل على اللسان لانّ النّاطق به يستلزم العودة إلى الموضع نفسه بعد مفارقته، وذلك يتطلب مجهوداً كبيراً[٩٣]، فهذه المبالغة وهذه الشّدة تدلّ مبالغته في الكفر والإنكار وشدة إصراره على معاقبة إبراهيم عليه السلام

(٩٢) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية: فوزي الشايب: ٧٤.

(٩٣) ينظر: الكتاب: ٣/ ٥٣٠، الخصائص: ٣/ ٢٦٦، الأشباه والنظائر: ١/ ٣١٢، معاني الأبنية العربية: السامرائي، ٣١ -٣٢، علم الصرف الصوتي: د. عبد القادر عبد الجليل، ٢٣٦ -٢٣٧.

وتصديه لدعوته وإعراضه عنها.

فالشدة والإطباق والإستمرار صفات ساهمت مساهمة رائعة في التعبير عن هذا المعنى، يساندها في ذلك التشديد في النون الذي رسم بشدته وثقله صورة تساند المعنى الذي دلّت عليه الألفاظ التي تحمل هذه الصفات وهو شدة الموقف وتصوير بغض الرّجل (آزر) وحقده في هذا النّص القرآنيّ.

وهكذا نرى أنّ النّظم القرآنيّ يراعي في اختيار كلماته وألفاظه وعباراته معايير صوتيّة وصرفيّة وتركيبيّة. فقد صوّرت هذه الأصوات بمجموعها هذا النّصّ الحواريّ تصويراً عاماً دقيقاً، فجاءت الأصوات موزعة توزيعاً رائعاً على أجزاء السّياق، فمعظم الأصوات المكونة للنصّ من أوضح الأصوات اللغويّة في السّمع وأنقاها وأكثرها تعبيراً عن الرّقة واللطف والشّفقة والرّحمة، فالصّوامت التي شغلت هذا التركيب (السين، الصّاد، التّاء، الهمزة، الجيم، الرّاء، الميم) كان لها أثرها الموسيقيّ بملمحها المتميز وهو الصّفير والنقاء في السّين والصّاد، والتّفخيم والإستعلاء في الصّاد، والإنفجار في التّاء والجيم، والثّقل والشّدة في الهمزة، والتّكرار والإستمرار في الرّاء، فهذه الصّفات تآزرت جميعاً لترسم هذه اللوحة الفنية والصورة الرائعة المظللة بظلال من الشّفقة والرّحمة والحبّ الإلهي من جانب إبراهيم عليه السلام وبظلال من اللؤم والبغض والكره من جانب آزر، كما أنّ الوضوح السّمعيّ في هذه الأصوات ناسب مضمون هذه الآيات الدّاعي إلى توحيد الله (عزّ وجلّ) الذي يقتضي الوضوح السّمعيّ، فتكرارها في النّص جعلها أقدر على الإيحاء بالمعنى والإسهام في إعطاء السّياق تناغماً إيقاعياً لغرض تهيئة ذهن المتلقيّ وجعله في حالة إنتباه وتركيز في محتوى الخطاب ومضمونه.

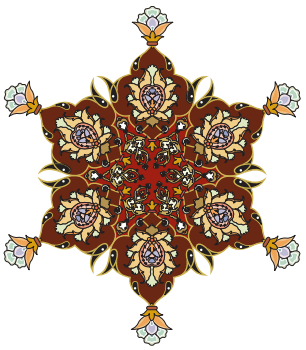

الخاتمـــــــــة

١. إنّ النداء القرآني يؤدي وظيفة دلالية تنبيهية استحضارية في كل أو معظم مواقعه.

٢. الجانب الصوتي ليس ببعيد عن التركيب الندائي باعتبار أنّ أدوات النداء هي مقاطع صوتية ممدودة، وكذلك مالاحظناه في حده بأنه صوت أوصياح.

٣. من خلال متابعة بعض النصوص القرآنية ممثلة في بناها الندائية اتضح لنا أنّ الجملة الندائية لها دلالة صوتية انطلاقا من صفات الأصوات المكونة لها فقد ظهر فيها ماتؤديه الخصائص الصوتية من دلالة مهمة في السياق. وهذه الدلالة لاتؤديها الجملة الندائية مستقلة على الرغم مماتحمله من خصائص صوتية، بل من خلال تعاضدها مع بنى أخرى داخل السياق.

٤. كما كشفت لنا الدراسة أنّ البنى الندائية تتنوع أصواتها التي تشكلها تبعاً لتنوع حال المنادي والمنادى فالدلالة السياقية تختلف من بنية إلى أخرى، فكما أنّ هناك الرأفة والرحمة هناك الغلظ والقسوة وكما يوجد الخوف والضعف يوجد معه التحسر والتندم والاستغاثة، وغيرها من الدلالات التي تؤديها الأصوات داخل النص الندائي.

٥. فعند ملاحظة الجانب الصوتيّ المكوِّن لآيات الاختيار الأول –الرحمة واللطف–وجدنا أنّه اجتمع فيها أوضح الأصوات وأكثرها رقّة وعذوبة وقدرة في التعبير عن محتواها الدلاليّ، وأبرز هذه الأصوات صوت السين الذي كان له دور هام وكبير في إبراز ما اتّسم به هذا الأسلوب من وضوح سمعيّ ورقّة وتلطّف في الخطاب لما اتّسم به من صفات هيّأت له هذه الدلالة فهو صوت صفيريّ احتكاكيّ مهموس مستفل مرقق الحركات ذو إيقاع منغم، ومن

خصائص هذا الصوت أيضاً أنّه يوحي بإحساس لمسي بين النعومة والسلاسة، كما يوحي بالرقة والليونة والضعف بما يتناسب مع خاصية الرقة والسلاسة فيه.

٦. أما فيما يخص الموقف المقابل لخطاب الرأفة والرحمة والتلطف نجد نوعاً من الخطاب المضاد الذي توشح بالقسوة والغلظة والتهديد والوعيد، إذ يجد المتأمل لمقطع الاختيار الثاني أنّه تكوّن من أصوات اتصفت بصفات الشدة والقوة والانفجار والتكرار وغيرها. فهذا الصّوت يحمل صفات الانفجار والشّدة والثّقل.

٧. كما نلمح أيضاً القوة والتّصلب والشّدة في قوله: ((لأرجمنّك)) فقد اجتمع في هذه اللفظة الهمزة الشّديدة الثّقيلة، والجيم الإنفجارية الشّديدة المجهورة، والرّاء التّكراريّة الإستمرارية المجهورة، والميم المطبقة وما فيها من صفات الجّهر، فكان لهذه الشّدة والإستمراريّة والإنفجار والإطباق أثر كبير في إبراز الجانب الدّلاليّ المعبّر عن شدة الحقد في نفس آزر ورفضه لهذه الدّعوة فحصلت المناسبة بين إطباقه على الكّفر وبين صفة الإطباق في الميم والوقفة في الجّيم قبل الإنفجار.

٨. وهكذا نرى أنّ النّظم القرآنيّ يراعي في اختيار كلماته وألفاظه وعباراته معايير صوتيّة وصرفيّة وتركيبيّة. فقد صوّرت هذه الأصوات بمجموعها هذا النّصّ الحواريّ تصويراً عاماً دقيقاً، فجاءت الأصوات موزعة توزيعاً رائعاً على أجزاء السّياق، فمعظم الأصوات المكونة للنصّ من أوضح الأصوات اللغويّة في السّمع وأنقاها وأكثرها تعبيراً عن الرّقة واللطف والشّفقة والرّحمة.

٩. الصّفات تآزرت جميعاً لترسم هذه اللوحة الفنية والصورة الرائعة المظللة بظلال من الشّفقة والرّحمة والحبّ الإلهي من جانب إبراهيم عليه السلام وبظلال من اللؤم والبغض والكره من جانب آزر، كما أنّ الوضوح السّمعيّ في هذه الأصوات ناسب مضمون

هذه الآيات الدّاعي إلى توحيد الله (عزّ وجلّ) الذي يقتضي الوضوح السّمعيّ، فتكرارها في النّص جعلها أقدر على الإيحاء بالمعنى والإسهام في إعطاء السّياق تناغماً إيقاعياً لغرض تهيئة ذهن المتلقيّ وجعله في حالة إنتباه وتركيز في محتوى الخطاب ومضمونه.

أهم المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ط: ١، المكتبة الثقافية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، بيروت..
- أساس البلاغة: أبو القاسم محمد بن عمر بن أحمد الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ط: ١، دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م، بيروت-لبنان.
- استخدامات الحروف العربية (معجمياً، صوتياً، صرفياً، نحوياً، كتابياً): سليمان فياض، د. ط، نشر دار المرتج، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، الرياض-السعودية.
- أسرار الحروف العربية: أحمد زرقة، ط: ١، دار الحصاد، ١٩٩٣ م.
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم: د. فاضل صالح السامرائي، ط: ١، مكتبة الصحابة، مكتبة التابعين، ١٤٤٩هـ/ ٢٠٠٨م، الشارقة الإمارات، عين شمس -القاهرة.
- أصوات العربية بين التحول والثبات: د. حسام سعيد النعيمي، د. ط، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٩م.
- الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس، ط: ٤، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة محمد عبد الحكيم حسان، ٢٠٠٧م.
- الأصوات اللغوية: عبد القادر عبد الجليل، ط: ١ سلسة الدراسات اللغوية، دار الصفاء للنشر والطباعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، عمّان -الأردن.
- أصول الخطاب في النظرية النحوية العربية: محمد الشاوش، ط: ١، مطبعة كلية الآداب، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، منوبة -تونس.
- الأصول في النحو: أبي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي (ت٣١٦هـ)، تحقيق: د. عبد الحسين

الفضلي، ط: ٣، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦ م، بيروت.

- أمالي ابن الشجري: هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة العلوي أبو السعادات ابن الشري، تحقيق محمود محمد طناحي، ط: ١، مكتبة الخانجي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢ م.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ط: ٢، دار إحياء التراث العربي، ١٤٩٦هـ/ ٢٠٠٥م، بيروت –لبنان..
- البرهان الكاشف في إعجاز القرآن: كمال الدين عبد الواحد الزملكاني (ت٦٥١هـ) تحقيق: خديجة الحديثي و د. أحمد محبوب، ط: ١، مطبعة العاني، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، بغداد.
- البرهان في علوم القرآن: الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط، مكتب دار التراث، د. ت
- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني: د. تمام حسان، ط: ١، الناشر: عالم الكتب، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ م، بيروت – القاهرة.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، د. ط، الدار التونسية للنشر، ١٨٨٤م، تونس.
- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: د. طيب البكوش، ط: ٣، المطبعة العربية، ١٩٩٢م، تونس.
- التصوير الفني: سيد قطب، ط: ٤، دار الشروق، ١٩٧٨م، مصر.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٤هـ) تحقيق سيد عمران، د. ط، دار الحديث، ١٤٣٣ه/ ٢٠١٢م، القاهرة.
- جواهر البلاغة: المعلم البيان أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي الأزهري المصري (ت١٩٤٣هـ) د. ط، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، بيروت –لبنان.

- الخصائص: أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، تقديم: د. عبد الحكيم راضي، ط: ٥، الهيئة العربية العامة للكتاب، ٢٠١١م، القاهرة.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها: حسن عباس، د. ط، اتحاد الكتاب العربي، د. ت، دمشق..
- دراسات في علم الأصوات: د. علي حازم علي كمال الدين، ط: ١، مكتبة الآداب، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، القاهرة.
- دراسات في علم اللغة: كمال محمد بشر، ط: ٩، دار المعارف، ١٩٨٦م.
- دراسات في علم اللغة الوصفي، التاريخي، المقارن،: أ. د صلاح حسنين، ط: ٢، مكتبة الآداب، ٢٠١٠ م-٢٠١١م، القاهرة.
- دراسة الصوت اللغوي: د. أحمد مختار عمر، د. ط، عالم الكتب، ١٤١٨ه/ ١٩٩٧ م، القاهرة.
- دراسة في علم الأصوات: د. حازم علي كمال الدين، ط: ١، مكتبة الآداب-ميدان الأوابر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، القاهرة.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبد النور المالقي، (ت٧٠٢هـ)، تحقيق: أحمد محمد المخراط، ط: ٣، دار القلم، د. ت، دمشق.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبي الفخر شهاب الدين السيد محمد الآلوسي البغدادي (ت٢٧٠هـ)، د. ط، دار احياء التراث العربي، د. ت، بيروت -لبنان.
- سر صناعة الإعراب: أبي الفتح عثمان بن جني الأزدي الموصلي (ت٣٩٢هـ)، تحقيق علاء حسن أبو شنب، د. ط، المكتبة التوقيفية، د. ت، القاهرة -مصر.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك لقاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهذاني المصري ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل: محمد محيي الدين عبد الحميد، د. ط، مكتبة الهداية، د. ت، بيروت- لبنان.

- شرح الرضي على الكافية: تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، د. ط، جامعة قازيونس،١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- شرح المفصل: موفق الدين أبي البقاء بن يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (ت٦٤٣هـ)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. إميل بديع يعقوب، ط: ١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٦م، بيروت –لبنان.
- الصوت اللغوي في القرآن: د. محمد حسن علي الصغير، د. ط، موسوعة الدراسات القرآنية، دار المؤرخ العربي، د. ت، بيروت –لبنان.
- الصوتيات العربية: د. منصور بن محمد الغامدي، ط: ١، مكتبة التوبة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، الرياض – المملكة العربية السعودية.
- علم الأصوات: د. كمال بشر، د. ط، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، القاهرة.
- علم الأصوات العام ((أصوات اللغة العربية)): د. بسام بركة، د. ط، مركز الانتماء اللغوي، ١٩٨٨م، لبنان.
- علم الأصوات النطقي دراسة وصفية تطبيقية: د. هادي نهر، ط: ١، عالم الكتب الحديث، ١٤٢٣هـ/ ٢٠١١م، الأردن.
- علم الصرف الصوتي: د. عبد القادر عبد الجليل، د. ط، أزمة، ١٩٩٨ م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: د. محمود السعران، د. ط، دار الفكر العربي، دار النهضة العربية، د. ت، بيروت لبنان.
- الفروق اللغوية: هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت٣٩٥هـ) تحقيق جمال الدين عبد الغني مرغش، ط: ٢، مؤسسة الرسالة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية: السيد خضير، د. ط، مكتبة الآداب، د. ت، القاهرة.
- في الأصوات اللغوية، دراسات في أصوان المد العربية: د. غالب فاضل المطلبي، د. ط، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٤م.

- في البحث الصوتي عند العرب: د. خليل إبراهيم العطية، د. ط، منشورات دار الجاحظ، المؤسسة الصغيرة، ١٩٨٣ م، بغداد.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، ط: ١، دار الشروق، ١٩٧٢ م.
- الكتاب: أبي بشر عمر بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط: ٣، الناشر مكتبة الخانجي، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، القاهرة.
- الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام أبي القاسم محمد بن عمران الزمخشري الخوارزمي، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ محمد عوض، د. ط، دار الحديث، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، القاهرة.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، (ت٧١١هـ) ط: ٣، دار صادر، ١٤١٤م، بيروت.
- لغة القرآن في جزء عم، د. أحمد نحلة، د. ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د. ت.
- اللمسات البيانية لسور القرآن الكريم: د. فاضل السامرائي، د. حسام النعيمي.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: أمين الأمة أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق لجنة من العلماء، ط: ١، مكتبة الهلال، ٢٠٠٥م، بيروت.
- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، د. ط، الناشر مكتبة لبنان، ١٩٨٦م.
- معاني النحو: فاضل صالح السامرائي، ط: ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، الأردن.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، د. ط، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/ ١٨٨٧م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس، ط: ٢، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م، بيروت –لبنان.